منهج أبى ذر الخشنى فى تفسير غريب السيرة (*)

للدكتور عبد الكريم خليفة

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عن نسبه وأخباره قبل البعث وبعده ، تكوِّن جزءا مهما مما عنى المحدِّثون بروايته . وما لبث هذا الموضوع المهم أن استقل فى مؤلفات خاصة . . . . وتوالى المصنفون فى هذه السيرة العطرة فى سلاسل متوالية من الطبقات حتى نجد أنفسنا أمام محمد بن إسحاق بن يسار (المتوفى سنة ١٥٠هـ) ، عمدة من أتى بعده فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه .

وقد روى أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) سيرة ابن إسحاق عن زياد ابن عبد الله البكَّائى (المتوفى سنة١٨٣هـ)، وأصبحت تعرف باسم «سيرة ابن هشام» .

وفى القرن السادس الهجرى تناول الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى المالكى الأندلسى (المتوفى سنة ٥٨١هـ)، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتعقَّب ابن اسحاق وابن هشام ، فيما أخبراً بالتحرير والضبط ، وبالشرح والاستدراك عليهما ، فوضع كتابه الموسوم « الروض الأنف » ، ونهج فى تصنيفه هذا منهجا موسوعيا ، فجاء كتابه هذا كتابا آخر فى السيرة .

وفى هذا القرن نجد الإمام أبا ذر الخشنى أحد أئمة العربية المشهورين فى الأندلس، (المتوفى بمدينة فاس سنة٦٠٤هـ) وهو من معاصرى السهيلى ، يتناول كتاب « سيرة ابن هشام » فيشرح غريبه ، وينهج

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر يوم الأربعاء ٢٢ من شوّال سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٤ من ابريل سنة ١٩٩٣ م .

فى تصنيفه هذا منهجا لغويا يختلف عن منهج السهيلى .

والخشنى صاحب شرح غريب سيرة ابن هشام هو مصعب بن محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشنى ، من أهل جيان ، يكنى أبا ذر ، ويعرف بابن أبى رُكَب . والأرجح أن نسبة الخشنى تعود إلى قبيلة خشين القضاعية [1]

وقد وصفته المصادر بأنه كان أحد الأئمة المتقدمين ضبطا وتقييدا ، وأحد المعتمد عليهم فى علم اللغة والآداب ، إماما فى العربية ، عالما بكتاب سيبويه . وكان نقَّادا للشعر عالما به ، مطلق العنان فى معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها .

ومن أهم مصنفات أبى ذر الخشنى كتابه الموسوم : « الإملاء المختصر فى شرح غريب السير » وهو فى حقيقة الأمر شرح غريب السيرة التى صنفها ابن هشام ولا شك أن هذا هو الدافع الذى جعل السيوطى ، وهو متأخر،يذكره فى كتابه البغية بقوله : « من تصانيفه (أى الخشنى) الإملاء على سيرة ابن هشام »[2] .

وضع الخشنى مصنفه هذا فى عشرين جزءا ، وذكر أنه روى له كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله عن محمد بن إسحاق . ومن الواضح أن هذا المصنف كان ثمرة مجلسه للإقراء والتدريس فقد جاء فى مقدمة الكتاب ما يوضح الغاية من وضع هذا الكتاب ، ويحدد السمات الأساسية لهذا المنهج اللغوى الذى نحا به نحوا يخالف منهج معاصره السهيلى فى كتابه « الروض الأنف». يقول أبو ذر الخشنى فى مقدمته:«وبعد ، فهذا إملاء أمليته من حفظى بلفظى على كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى

---

(١) فى ترجمة حياة أبى ذر الخشنى ، أنظر : مقدمة كتابنا « الإملاء المختصر فى شرح غريب السير » ص ١١ - ٣٦ .

(٢) البغية ج ٢ ص ٢٨٨ .

تقـدم محـمد بـن إسحـاق إلى جـمعـها وتلخـيصها ، وعنـى عبد الملك بـن هشام بعده بتهذيبهـا وتخليصها ، أَوَانَ سُمع هذا الكتاب منى وقيدت رواياته بطرقها عنى ، قصـدت فيه شرح مـا استبـهم من غريـبه ومعانيه ، وإيـضاح ما التبس تفسـيره على حـــامله وراويـه مع اختـصـار لا يُـخل وإيجاز يتمُّ بـه البيان ويستقل ، لـم يُقصد فيه قصد التأليف فـتمد أطنابه ، ولا يُنحى به نحو التـصنيف فتمهد فـصوله وأبوابه ، وإنما هى عجالة الخاطر وغـنية الناظر ، ثم عُـرِض علـىّ هـذا الإملاء بـعـد كـمالـه فتصفحته ، ورُغب فى حمله عنى ، فبعد لأى مـا أذنت فـى ذلك وأبـحتـه ، والله سبحانه يـنفعنا بما قصدنا ، ويـجزل ثوابنا على ما ابتغيناه وتوخيناه . . إلخ »[1] .

ففـى هذه المقـدمة المقـتضبـة ، حدد الخشنى طبيعة وضـع هذا العمل اللغوى ، وبين أهدافه وأشار إلى مـعالم المنهج الذى اتبعه . فـهو إملاء على كتـاب « سيرة ابن هشام » ، سُمع منه وقيدت رواياته بطرقها عنه إبان تصدره للتدريس . فمن المعروف أنه كـان يقـرىء العربـية فـى أهم مـراكز الإشعاع الثقافى والعـلمى فى ذلك الوقت فى الأندلس والمغرب . فتـحدثنا الروايات أنه كان يقـرىء العربية بمسجـد ابن الرمَّاك بأشبيلية ، وكذلك بجيَّان وغيرها من المدن التى أحبها ، إلى أن استـوطن بأخَرة مدينة فاس وأقام بها يقرىء العربية[2] .

وتـــترعى انتـباهنـا فى هذه المقـدمة قضايا عدة تستحق الـوقوف عندها والتأمل فيها . فهو « إملاء من حـفظه بلفظه أملاه على طلبـته أوَانَ سُمع هذا الكـتاب منه ، وقيدت روايـاته بطرقـها عنه وإن كـان مع الأسف لم يحدد لنا زمـان سماعه منه ولا المكان الذى أملاه فيه .

وأوضح كذلـك الهدف الذى تـوخاه من وضع هذا الكتاب إذ يقول : « قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه » ، فلا بد من أن نحدِّد مفهوم « الغريب » عند

---

(١) الإملاء المختصر ، ج١ ص ٧٢

(٢) انظر : تكملة الصلة ، السفر الأول ، ص ٣٨٦

أبى ذر ، وأن نبين منهجه فى « شرح ما استبهم من المعانى » ففى ذلك يتجاوز شرح الغريب من الألفاظ إلى الحديث عن « معنى المعنى » ، فيما استبهم من المعانى . . و « فيما التبس تفسيره على حامله وراويه » . . وأن أسلوبه فى ذلك كله هو الاختصار الذى لا يُخل والإيجاز الذى يتم به البيان ويستقل . . وإن قوله فى وصف منهجه « لم يُقصد فيه قصد التأليف فتمد أطنابه ، ولا ينحى به نحو التصنيف فتمهد فصوله وأبوابه » ، ليَضع على عاتق الدارس البحث عن السمات المعجمية التى تَمَيَّز بها منهج الخشنى فى شرحه لما استبهم من غريب الكتاب ومعانيه . . وإن كان أجمل القصد من ذلك كله عندما وصف مبادرته هذه بقوله : « وإنما هى عجالة الخاطر وغنية الناظر » .

لقد نهج أبو ذر الخشنى فى كتابه هذا منهجاً لغوياً خاصاً تظهر فيه كثير من سمات المنهج المعجمى ، وهو فى الوقت ذاته يبتعد من حيث الغاية والأسلوب عن كونه كتابا فى السيرة .

كان الخشنى كما وصفه ابن سعيد من عظماء نحاة الأندلس ، وقد تصدَّى لتدريس كتاب سيبويه . ومن مصنفاته الشهيرة : مصنف كبير فى شرح سيبويه ، وكتاب « شرح الإيضاح » وكتاب « شرح الجمل » [1] وكان على حد تعبير ابن الأبار « رئيساً فى صناعة العربية ، عالماً بها ، قائماً عليها ، درسها حياته كلها » [2]

وإن لغوياً هذا شأنه ، لابد أن يكون على صلة وثيقة بالمناهج المعجمية العربية التى تطورت تطوراً واسعاً منذ الخليل بن أحمد فى القرن الثانى الهجرى حتى وفاة أبى ذر الخشنى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، ومن أقصى المشرق فى «فاراب» وخراسان إلى الأندلس ، مروراً بالعراق والشام ومصر . . ومن أشهر هذه المعجمات : كتاب العين للخليل بن أحمد

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ص ٤٧٧ .
(٢) انظر : تكملة الصلة ، السفر الأول ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(المتوفى سنة ١٧٠هـ) والتهذيب للأزهرى. (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) . والصحاح للجوهرى .(المتوفى سنة٣٩٣هـ) والمحكم لابن سيده . (المتوفى سنة ٤٥١ هـ) والأمالى لابن برى (المتوفى سنة ٤٥١ هـ) والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) . وإذا تذكرنا أن الخشنى توفى سنة ٦٠٤ هـ ، بدا لنا واضحاً ، مكانة هذه المعجمات فى تكوين المنهج المعجمى بصورة عامة ، ومنهج أبى ذر الخشنى فى تفسير غريب السيرة . وربما كان من الأهمية بمكان طرح التساؤل حول مدى العلاقة بين « النهاية فى غريب الحديث » لابن الأثير بصورة خاصة وشرح غريب السيرة للخشنى . وإذا استثنينا كتاب « العين » ، نجد أن المعجمات الخمسة الأخرى هى المصادر التى اعتمدها ابن منظورفى القرن الثامن الهجرى ، فى وضع معجمه المشهور « لسان العرب » . ولا شك أن اختيار ابن منظور هذه المعجمات بالذات له دلالات منهجية ولغوية وثقافية واجتماعية لا يتسع المقام لبحثها . ونحن إذا نظرنا إلى جميع هذه المعاجم والمصنفات الأخرى التى عنيت بجمع ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وكذلك الألفاظ الاصطلاحية وشرحها وتفسيرها ، إنما تنحو جميعها منحى معيناً فى دراسة معانى الألفاظ .

وربما كانت أبرز ظاهرة تميز المنهج اللغوى الذى سلكه أبو ذر الخشنى فى شرحه غريب السيرة ، حرصه على تفسير الألفاظ بحسب السياق ومن خلال النصوص . فهو يبحث عن استيعاب المعنى من خلال الدلالة التى تحملها اللفظة فى سياق الكلام ، سواء أكان ذلك من خلال سياق المقال أم من خلال سياق المقام . فقد يكون للفظة الواحدة معان متعددة تتناوب فى الظهور بحسب سياق الكلام وإيحاءاته وما يضفيه من ظلال على المعنى .

فالخشنى يورد العبارة التى تشتمل على اللفظة التى يريد شرحها ، وغالباً ما يبدأها بكلمة « وقوله » وهذا منهج عام يطّرد فى هذا الكتاب الجليل ، ونمثل على ذلك بما يلى : قوله : « مِنْ ظُلُمَهْ يعنى من جهة البحر » (ج١ ص ٧٧) .

فالخشنى يرى أن معنى « ظُلُمَهْ » في هذا المقام هو « أنه من جهة البحر » وهو بحسب رأيه ما عناه القائل ، ولم يعرض الخشنى المعانى المعجمية لهذه اللفظة. وكذلك قوله « إنَّها حَرْبٌ رَباعيَّة . أراد إنها حرْب فتية . فاستعار لها سِنّ الرَّباعيَّة» (ج١ ص ٧٩) .

واستدل الخشنى على هذا المعنى من السياق ، فقال : « كما قال : الحربُ أوَّلَ ما تكون فتيةً تسعى بمسيرتها لكلِّ جَهُول » .

وقوله : « وأبدانها جمع بَدَنٍ وهى الدِّرع هنا » .

فكلمة « بدن » تدل على معان مختلفة، ولكن الخشنى يرى أنها فى هذا السياق تعنى .. الدِّرع » وقد نص على ذلك بقوله : « هنا » .

وقوله : « ذات الرؤوس السبعة ، يعنى بالرؤوس هنا القرون التى على رأسها» . (ج١ ص ٨٣) .

فكلمة « الرؤوس » تدل على معان مختلفة ، ولكن الخشنى يرى أنها فى هذا السياق تعنى « القرون » ، وقد درج على استعمال كلمة « هنا » لتدل على معنى خاص فى هذا السياق .

وقوله : « وأسطوان جمعُ أُسطوانة وهى السارية ، وأراد بها ها هنا موضع الراهب المرتفع » (ج١ ص ٨٥) .

أورد الخشنى لفظة « أسطوان » فى صيغة الجمع وذكر مفردها ، ووضع معناها اللغوى ، ثم وضع معناها المقصود فى سياق الكلام ، فقال : وأراد بها ها هنا « موضع الراهب المرتفع » .

وقوله : « الوِتْر هنا طلب الثأر » (ج١ ص ٨٨) .

فالخشنى يرى أن « الوِتْر » فى هذا المقام يعنى طلب الثأر .

وقوله « والحاصب هنا الحجارة » (ج١ ص ٩٤) .

ويستعمل الخشنى للإشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام من معنى ألفاظاً مثل : « هنا » و « ها هنا » و « يعنى »

و« يعنى به » و « يريد » والأمثلة على ذلك كثيرة ومطردة فى جميع أجزاء الكتاب . . . ومنها :

« السافى هنا الذى غطَّاه التراب . يقال : سَفَت الريحُ التراب (ج١ ص ٩٥) أورد الخشنى المعنى السياقى ، ثم ذكر المعنى اللغوى من خلال المثال الذى أورده إذ إن اسم الفاعل من الفعل الثلاثى «سفى» هو « سافى » ، ولكن المعنى السياقى جاء على غير ذلك .

وقد يستعمل الخشنى فى تفسيره المعنى السياقى كلمة « يعنى » كما ذكرنا ، ومثال ذلك : « وبنو الأحرار يعنى الفرس » (ج١ ص ٩٩) .

« وَشُدُفٌ عِظامُ الأشخاص يعنى به القِسى » (ج١ ص ٩٩) .

فقد أورد المعنى اللغوى ثم أورد المعنى السياقى الذى يقتضيه المقام .

وقوله : « والزَّمْخَر القَصَبُ اليابس يعنى قَصَبَ النُّشَّاب » (ج١ ص ٩٩).

وقوله : « الإسبال إرخاء الثوب ، وهنا يريد به الخيلاء والإعجاب » (ج١ ص ٩٩) .

فقد شرح الخشنى معنى « الإسبال » فى اللغة ، وشرح معناها فى سياق الكلام، وهذا ما عبَّر عنه فى مقدمته فى حديثه عن قصده من وضع هذا الشرح بما أسماه « غنية الناظر » .

وقد يستعمل الخشنى لفظة « يريد » فى الإشارة إلى المعنى السياقى أو المعنى الذى يقتضيه المقام ومن ذلك :

قوله : « وُلاةُ مُلكٍ » يريد « الذين يدبِّرون أمر الناس ويصلحونه » والأمثلة على ذلك كثيرة ومطردة ومنها :

قوله : « وتوالبها جمعُ تَوْلَب . والتَّوْلَبُ ولد الحمار ، فجعله هنا للبغال » (ج١ ص ١٠٠)

وقوله : « يَرِيشُ الله فى الدنيا ويَبْرِى» يريد أن « الله تعالى ينفع ، وهذا الصنم لا ينفع » (ج١ ص ١٠٤)

وقوله : « فلا وَرَبِّ الآمنات القُطَّن ، يعنى حمام مكة ، والقُطَّن المقيمات . يقال قَطَن بالمكان إذا أقام فيه » .

فقد أورد الخشنى المعنى وفق سياق الكلام ، ثم أورد المعنى اللغوى ، وهكذا يستمر الخشنى فى هذا المنهج اللغوى فى تفسيره غريب السيرة ، ألفاظا ومعانى .

ولا شك أن الخشنى لم يكن مبتدعاً لهذا المنهج اللغوى ، ولكنه نحا فيه منحًى معجميًا مد ظلاله بصورة رئيسية على القصائد والمقطوعات التى وردت فى السيرة .. وأخذ تفسيرُ الألفاظ بحسب السياق طابعًا علميًا واضحا .

فهذا الراغب الأصفهانى ، وهو من أوائل القرن الخامس الهجرى ، يحدثنا عن العلوم اللفظية ، فيقول : « وذكرت أن أول ما يُحْتاج أن يُشْتغل به من علوم القرآن العلومُ اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فَتُحَصَّلُ معانى مفردات ألفاظ القرآن ، فى كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه . . . وليس ذلك نافعا فى علم القرآن فقط ، بل هو نافع فى كل علم من علوم الشرع . فألفاظ القرآن هى لُبُّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه . . [1] .

وقد أشار الزَّركشى فى كتابه البرهان إلى عناية الرَّاغب فى فهم مفردات الألفاظ ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وذلك فى أثناء حديثه عن القِسْمِ من القرآن الكريم الذى لم يَرِد فى تفسيره النقلُ عمَّن يُعتبر تفسيرُه .. يقول الزركشى :

« . . . . الثانى ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين ، وهو قليل ، وطريق التوصل إلى فهمه ، النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتنى به الراغب كثيرا فى كتاب « المفردات » . فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة فى تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق [2] . ويستدل الطَّبْرسى ، وهو من أكابر علماء الإمامية فى القرن السادس الهجرى (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) على أن معنى «الدين » فى الآية الكريمة

---

(١) الراغب الأصفهانى ، ص ٣ .

(٢) الزركشى ، ج٢ ص ١٧٢ .

هو « الجـزاء » . وذلك مـن خلال قـوله تعالى « اَلْيَوْمَ تُجْزَى كُـلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اَلْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ اُلْحِسَابِ » [1] .

وقوله تعـالى : لاَ تَعْتَذِرُوا اُلْيَـوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » [2] .

يقول الطبرسى : « الـدِّين » معناه فى الآية الجزاء . قال الشاعر : (واعلم بأنك ما تدين تدان) ، وهو قول سعيد بن جبير وقـتادة ، وقـيل الـدين الحـساب ، وهـو المروىُّ عن أبى جعفر محمد بن على الباقر علـيهـما السـلام وابن عـباس ، والـدين الطاعة .

قال عمرو بن كلثوم :

وأيَّامٍ لنا غُرّ طوالٍ

عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن ندينا

والدِّين العادة ، قال الشاعر :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينى

أهـذا دينُه أبداً ودينى .

والـدِّين الـقهـر والاستـعلاء . قـال الأعشى :

هو دَانَ الرِّبابَ اذ كرهوا الدِّ

يِنَ دِرَاكاً بَغَزْوةٍ وصـيالِ

تم دانت بَعْدُ الرِّبابُ وكانَتْ

كَعَذابٍ عقـوبةُ الأقـوالِ

ويدل على أن المراد الجزاء والحساب ، قوله تعـالى : « اليوم تُجْزى كـلُّ نفس بما كـسـبت » . وقولـه تعـالى : « اليـوم إنما تُجزون ما كنتم تعملون » [3] .

وفى تـفسيـره « النـعمة » مـن سورة الفـاتحة يقول الـطبرسـى : وأصل النعـمة المبـالغـة والزيـادة ، يقـال دققـت الدواء فأنـعمتُ دقَّه أى بـالغتُ فى دقـه ، وهذه النـعمة وإن لـم تكن مذكـورة فى اللـفظ فالكلام يدل عليها . . الخ » [4] .

فقد اسـتدل على معـنى هذه اللـفظة بسياق الكلام الذى يدل على المعنى المراد .

---

(١) سورة غافر ، آية رقم (١٧) .

(٢) سورة التحريم ، الآية رقم (٧) .

(٣) الطبرسى ، ج١ ص ٣٠ .

(٤) المصدر نفسه .

واستمر المنهج اللغوى ، وفق سياق الكلام يَمُدُّ ظلاله على البحوث اللغوية والفقهية. ويعرض الفقيه الفيلسوف ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) إلى هذه الظاهرة اللغوية، ويطلق عليها « دليل الخطاب » . ففى حديثه عن أصناف الألفاظ التى تتلقى منها الأحكام من السمع ، يقول ابن رشد : «وأما الطريق الرابع ، فهو أن يُفهَم من إيجاب الحكم لشىء ما ، نفىُ ذلك الحكم عمَّا عدا ذلك الشىء ، أو مِنْ نَفْيِ الحكم عن شىء ما ، إيجابُه لما عدا ذلك الشىءَ الذى نُفِيَ عنه وهو الذى يُعرف « بدليل الخطاب » . وهو أصل مختلف فيه ، مثل قوله عليه الصلاة السلام : « فى سائمة الغنم الزكاة » .

فإنَّ قوماً فهموا منه أن لا زكاة فى غير السائمة . وأما القياس الشرعى فهو إلحاق الحكم الواجب لشىء ما بالشرع، بالشىء. المسكوت عنه ، لشَبَهه بالشىء الذى أوجبَ الشرعُ له ذلك الحكم ، أو لعلة جامعة بينهما »[1] .

وأن ما أسماه ابن رشد « دليل الخطاب» ، إنما هو فهم المعنى المراد من خلال دليل ينبِّه عليه سياق الكلام ، وإذا كان ابن رشد استطاع أن يرسم صورة متكاملة لنظريته حول المعانى المتداولة المتأدية من أصناف الألفاظ[2] ، فإن معاصره من أبناء بلده ، الإمام الخشنى قد جعلها محور منهجه فى تفسيره غريب السيرة .

واستمر هذا المنهج اللغوى الذى أجمل نظريته ابن رشد وأصَّل أركانه الخشنى فى مجالسه العلمية والتعليمية ، يتطور فى دراسة الدلالات اللفظية ، بل ويستعمل اصطلاحات لغوية تشير بصورة واضحة إلى ما أضيف من جديد فى علم المعجمات .

وفى القرن الثامن الهجرى ، نجد استعمال مصطلحات « سياق الكلام » شائعة ، ولا سيما فى مجال علوم القرآن والحديث . يحدد الزركشى وهو من أبناء

---

(١) ابن رشد ، ج١ ص ٤ -

(٢) انظر : ابن رشد ، ج١ ص ٣ - ٥ -

القـرن الثـامن الـهجـرى (المتـوفى سـنة ٧٩٤هـ) ، معـالم القانون الـذى يجب أن يعوَّل عليه فى تفسير القرآن الكريم فيقول: «ومعلوم أن تفسيره ، يكون بعضه من قبيل بسط الألـفاظ الوجيزة وكـشف معانـيها ، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات علـى بعض ، لبـلاغته ولـطف معانـيه ، ولهذا لا يُستغنى عـن قانون عام يعوَّل فى تفسيره عـليه ، ويُرجع فى تفسـيره إليه ، من مـعرفـة مفـردات ألفاظـه ومركـباتـها وسياقه، وظاهره وباطنه . . . »[1]

وفى حـديث الزركشـى عن فصـاحة القـرآن الكريـم وبلاغتـه وبديـع صياغـته يقول: « إن كان سـياق الكلام ترجيـةً بسَط وإن كان تـخويفـا قَبض ، وإن كـان وعدًا أبهج ، وإن كان وعيدًا أزْعج . . »

وأورد صاحب كتاب الـبرهان ، تحت عنوان : « فى ذكر الأمور التـى تُعين على المعنـى عند الإشكـال » قوله : ومما يـعين على المعنى عند الإشكال أمور . . الرابع : دلالة الـسـيـاق ، فإنهـا ترشد إلـى تبـيين المجمل والقـطع بعدم احتمـال غير المراد ، وتخصيص العام . . وتنوع الدلالة ، وهو من أعـظم القـرائـن الدالـة على مـراد المتكلم ، فمن أهمله غلط فى نظيره وغالط فى منـاظرته وانظـر إلى قوله تـعالى « ذق إِنَّكَ أَنْتَ الـعَزِيزُ الكَـرِيمُ[2] » كيـف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقـير[3] .

ويـشيـع الحـديث عـن « الـسيـاق » «ودلالة الـسياق » « وتـنوع الدلالـة » فى مواضع كثيرة من كتابه « البرهان فى علوم القرآن » ويفصِّل القول فى التفسير بحسب أفراد الألفـاظ وتراكيبها . . ومـا له دلالة كبيرة فى بناء معالم هذه النظرية اللغوية ، أن الزركشى قد تحدث فى كـتابه المشار إليه عن « معنى المعنى» إلى جانب المصطلحات اللغوية الأخرى ، ففى حديـثه عن التفسير بحسب تراكيـب الألفاظ ، يقول : « وأما بحسـب التراكيـب ، فمن وجوه أربـعة : الأول : باعتـبار كيفيـة التراكيب بـحسب الإعراب ومقابـله ، من حيث إنهـا مؤدية

---

(١) الزركشي ، ج ١ ص١٥ .
(٢) سورة الدخان الآية (٤٩) .
(٣) الزركشي ، ج٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

أصل المعنى ، وهو ما دلَّ عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو .

الثانى : باعتبار كيفية التركيب من جهة « إفادته معنى المعنى » أعنى لازمَ أصل المعنى الذى يختلف باختلاف مقتضى الحال فى تراكيب البلغاء وهو الذى يتكفل بإبراز محاسنه علم المعانى [1] .

وكذلك نجده يتحدث فى هذا الباب عن « طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدّلالة وحقائقها ومراتبها .... » ولا شك أن الحديث عن الدلالة يعنى الحديث عن العلاقة بين « الدال » و «المدلول» وقد عنى الخشنى فى منهجه اللغوى الذى اتخذه فى تفسير غريب السيرة إلى جانب الدلالة السياقية بالدلالة النحوية والدلالة الاشتقاقية وكذلك الفروق الدلالية للمشترك اللفظى وللفظة الواحدة التى إذا تغيرت إحدى حركات بنيتها ، تغيَّرت دلالتها . .

ويبدو أن الدراسات حول المعنى المراد من خلال سياق الكلام ، قد اتسع نطاقها فى هذا القرن ، وهى فى كليتها تدور حول علاقة المعجمية بعلم الحديث وأصول الفقه ، وقد أجمل الشاطبى (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) وهو من معاصرى الزركشى ، الحديث عن هذا المنهج اللغوى فى فهم المعانى ، فقال فى كتابه (الموافقات فى أصول الشريعة) : « . . . أن يكون الاعتناء بالمعانى المبثوثة فى الخطاب هو المقصود الأعظم ، بناء على أن العرب ، إنما كانت عنايتها بالمعانى ، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها ، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية . فاللفظ هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ، والمعنى هو المقصود ، ولا أيضا كل المعانى ، فإن المعنى الإفرادى قد لا يُعبأ به إذا كان المعنى التركيبى مفهوما دونه » [2] .

ويوضح الشاطبى هذه العلاقة السياقية بين الدال والمدلول فيؤكد البحث عن المعنى المقصود الذى يقوم عليه جوهر الخطاب فيقول : « فاللازم الاعتناء بفهم معنى

---

(١) الزركشى ، ج٢ ص ١٧٣ - ١٧٤

(٢) الشاطبى ، ج٢ ص ٨٧

الخطاب لأنه المقصود والمراد ، وعليه ينبنى الخطاب ابتداءً وكثيرا ما يُغفل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة فَتُلْتَمَسُ غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذى ينبغي ، فتَسْتَبهمُ على الملْتمس وَتستَعْجِمُ على من لم يفهم مقاصد العرب [1] .

لقد بينا فيما سبق كيف أن الخشنى يحرص فى منهجه المعجمى على إيراد معنى اللفظة حسب سياق الكلام ، سواء أكان ذلك وفق مقتضى المقال أم وفق مقتضى المقام .

وفى مجال « الدلالة النحوية » نورد بعض الأمثلة التالية :

يقول الخشنى : وقول ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم لها العرب بواحد ، قال النحويون : واحدها فى القياس « إبِّيل و إبُّول » [2]

وقوله : ومطْموم من قولهم طمَّ الماءُ وطَمَا إذا علا وارتفع وقول الراجز :

فَصيِّرُوا مثل كعصفٍ مأكول .

قال : ولهذا البيت تفسير فى النحو ، تفسيره ، أن الكاف زائدة لكونها قد تكون حرفاً ، و « مثل » لا تكون إلا اسماً ، فزيادة الحرف أولى من زيادة الاسم والمراد لزيادتها التأكيد [3] .

وقوله : « لم يؤوبوا أرضهم » أى لم يرجعوا إلى أرضهم يقال آب إلى كذا أى رَجَع إليه ، وكان وجه الكلام أن يقول : إلى أرضهم ، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل [4] .

وقد أولى الخشنى الدلالة الاشتقاقية اهتماما فقد يستعرض وجوه الاشتقاق ثم يعطى المشهور منها والشائع مثال ذلك قوله:

« وما بعد ذلك - أى بعد معدٌ بن عدنان - فهى أسماء أعجمية منها ما يوافق العربى فى الاشتقاق والتصريف، ومنها ما يخالفه » . . . ولؤى تصغير لآي وهو الثور الوحشى ، وقد يكون

---

(١) الشاطبى ، ج٢ ص ٨٨ .

(٢) الخشنى ، ج١ ص ٩٠ .

(٣) انظر : الخشنى ج١ ص ٩١ .

(٤) الخشنى ، ج١ ص ٩٣ .

تصغير لَأْىٌ وهو البطء والمشهور فيه الهمز .[1]

وقد يستعرض وجوه الاختلاف فى اللفظ ، ويقف عند الدلالة الصرفية ، مثال ذلك قوله : وإلياس مختلف فيه ، فمنهم من يقول فيه : أليَاس موافق للذى هو خلاف الرَّجاء ، وهو مصدر يَئِسَ . ، ويستدل على ذلك بقول رؤبة بن العجاج:

أُمَّهتى خِنْدف والَيأسُ أبى .

ويقول ابن هَرْمة :

أصيب بداءٍ يأسٍ فهو مُودى - أى هالك.

وبعضهم يقول فيه : إلياسُ بكسر الهمزة[2] .

وقوله : إلحاف : منهم من يكسر همزته ويقطعها ، كأنه سمى بمصدر ألحف فى المسألة إذا بالغ فيها، ومن قوله تعالى: لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلحَافًا . . .[3] ومنهم من يجعل الألف واللام فيه للتعريف ، بمنزلة اسم الفاعل من : حَفِىَ يَحْفَى[4] .

وقوله : القُلَّيس هو اسم الكنية التى بَنَى ، وهو مشتق من قَلَسَ الشىءُ، إذا ارتفع[5] .

وقوله : الأكَارِيشُ الجماعات من الناس ، وهو جمع أكْراش ، وآكْرَاشٌ جمع كِرْشٍ والكِرْشُ الجماعة من الناس ، فهو على هذا جمع الجمع . .[6] .

وقوله : كَورْد القَطَا ، الوِرْدُ ها هنا الواردة للماء ، سميت باسم المصدر[7] .

ويقف الخشنى أيضا عند اللفظة الواحدة التى إذا تغيرت إحدى حركات بنيتها تغيرت دلالتها ،، مثال ذلك قوله :

الحِلال بكسر الحاء ، جمع حِلَّة ، وهى جماعة البيوت ، والحَلال بفتح الحاء خلاف الحرام[8] .

---

(١) الخشنى ، ج١ ص ٧٣ .
(٢) الخشنى ، ج١ ص ٧٣ - ٧٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٣ .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ٧٥ .
(٥) الخشنى ، ج١ ص ٨٧ .
(٦) الخشنى ج١ ص ١٠٧ .
(٧) الخشنى ، ج١ ص ١٢١ .
(٨) الخشنى ، ج١ ص ٨٨ .

وقولـه : الأَدماء مـن الظبـاء السُّـمْر الظهـور البيـض البـطن والأُدْمَة فـى الإبل البياض الخالص ، والأدُمة فى الآدميين أن يميل اللون إلى السُّمْرة قليلا . [1] .

وقوله : وَمَنْ روى عِقْد ذات نطِاف ، بكسر العين ، فالنِّطاف جمع نُطْفَةٍ ، وهى القُرْط الـذى يُعلّق مـن الأذن ، ومن رواه عَقْد بفتح العَّين ، فالنِّطاف جمعُ نُطفة من الماء ، وهو القليل الصافى منه [2] .

وقوله : العَذْق، بفتح العين النخلةُ ، وبكـسر العـين الكِبَاسـة وهـو عُنقـود النخـلة [3] .

ويقف الخشنى عنـد اللفظة الواحدة ، التى إذا تغـير أحد حروف بنيتـها فى وجه من وجوه الروايـات تغيرت دلالتهـا، مثال ذلك قوله :

« يقال : أَخْفَرْتُ الرَّجل ، إذا نقضت عهده ، وخَفَرْتُه ، إذا أَجَرْته [4] .

وقولـه : « كالأِبل الظَّـراب ، يروى بالظـاء معجمة ، وبالـطاء غير معـجمة . فمن رواه بالـظاء معجمة فهـو جمعُ ظَرِب وهو الجُبـيل الصغـير ، شبَّه الإِبـل بها ، ومن رواه بالـطاء المهمـلة فهى الإبـل التى حنـت إلى مواطـنها واشـتاقت . يـقال : طَرِبَت الإبل إذا حنَّت [5]

وقولـه : والفَجَـرُ بالجـيم العـطاء ، وبالخاء المـعجمة الـفَخرُ [6] ، وقـولـه : «وأَبْلَجُ بالجـيم مشهور ، وبالخاء مـتكّبر . والزمن الجرود بالجيم ، زمن القحط ، لأنه يجرد الأرض من النبات ، ومن رواه بالحاء المهملـة ، فمعناه الذى يمتـنع قَطْره ، لأن حَرَدَ قد تـكون بمعنـى قَطَعَ ومنَـع . ومنه قولهم : حاردت النـاقة إذا منعت درها أى لبنها [7] .

ويُعنى الخـشنى فى تفسـيره الغريب ، بإيراد الرّوايـات المختلفة ، وقد يـوثّق هذه الروايات فيذكر المصدر ، وكثيراً ما يسكت

---

(١) الخشنى ، ج١ ص ٩١ .
(٢) الخشنى ، ج١ ص ١٤٢ .
(٣) الخشنى ، ج١ ص ١٥٢ .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ٨٩ .
(٥) الخشنى ، ج١ ص ١٢٣ .
(٦) الخشنى ، ج١ ص ١٢٨ .
(٧) الخشنى ، ج١ ص ١٣٦ .

عن المصـدر ، ويصوِّب ما يراه ، معـتمداً رأيه . وهو الحجـة فى اللغة ، كمـا تجمع المصادر الـتى تحدثت عـنه ، مثـال ذلك قوله :

«وقوله» فى ولد إسمـاعيل: وَطَيْماء، كذا وقـع هنـا بالـطاء المهـملـة مكـسورةً ومفتوحـةً . وقيده الدارَ قُطنـى : وَظَمْياء بالظاء المعجمة ممدوداً وتقديم الميم » [1] .

فقد أورد الخشنى الروايتين وضبطهما، وأورد مصـدره فى روايـة أخرى . وقـوله «مُضَاض . . ويقال : مِضَـاض بكسر الميم أيضاً » [2] .

وقـوله « أَسْلُـمُ » هنـا بـضم الـلام وفـتحـها ، وأسـلـم بضـم الـلام هـو الصواب » [3] .

وقوله : « وجُروب حِـجارة سود كذا قال الَـوقَشِيُّ ، وهـى روايتـه . ومن رواه حُروث فهو جَمع حَرْث » [4] .

وقوله : « ومشاجبها جمع مِشْجَبٍ ، وهو عـودٌ تعـلق علـيه الـثيـاب ، ورواية الخشنى مَساحِبُها . وقال : هى القلائد فى العنق من قَرَنْفُل أو غيره » [8] .

وقـوله « والمِـرْبَاعُ الـــذى رعى فـى الرَّبـيـع . ورواية الخشـنى المِرْيـاع بالـياء المنقـوطة باثنـتين من أسفـل ، وقال : هو مِفْعال من راع إلى كذا يَرِيعُ أى رَجَعَ » [9] .

وقوله بعد أن عرض الروايات المختلفة لكـلمة « اللـثَّقَ » و« اللَّـبَق » وما يتـرتب على ذلك من اختلاف فى المعنى مبدياً رأيه على عادته فيقول : واللَّثَق بالثاء المثلثة هو الصواب هنا [5] .

وقوله : « وَفَقَم عَـظُم ، ويروى فَقِمَ بكسر القاف ، والصواب فتحها [6]

وقوله : ووقع فى الرِّوايـة فُظِعَ بضمِّ الفاء وفـتحها . قال الـشيخ الفقـيه أبو ذر رضى الله عنـه : والصواب فَظِـعَ بفتحـها على وزن عَلِمَ [7] .

(١) الخشنى ، ج١ ص ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الخشنى ، ج١ ص ٧٥ .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ٨٥ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) الخشنى ، ج١ ص ٩٨ .
(٧) الخشنى ، ج١ ص ٧٦ - ٧٧ .
(٨) الخشنى ، ج١ ص ١٠٣ .
(٩) الخشنى ، ج١ ص ١٠٦ .

وقوله :

« وقــول الشــاعر فــى بيــته : حُـولُ الفصــائل . أراد جمعَ فُصْــلان ، وفُصْلان جمع فَصِــيل ، وهو الصغيــر من الإبل . والصواب الوصائل ، وهو جمع وَصيلة . وقد فَسَّرها ابن إسحاق وابن هشام [1] .

وقوله :

الحَلْــىُ اسم موضــع فيه مــاء ، وقال بعضــهم : هو اسم نبات . وهــذا غلط ، لأن اسم النــبات هو الحَلِــىُّ بتشديــد الياء وبكسر اللام [2] .

وقد يذكر الخشنى مختلف الروايات ، ويوثق بعضها ويصوبــها مثل ذلك قــوله : « وَخِذامَةُ ابنةُ الحــارث ، هكذا روى بخاء معــجمة مكــسورة وذال معجــمة ، وروى أيضاً وَجُـدامة بجيم مضمومة ودال مهملة ، وحُذافة بحاء مهملة وذال معجمة وفاء . . قيدها أبو عمر النَّمَرِىُّ وهو الصواب [3] .

وقــوله : الطَّــىُّ ، ويقــال الطَّــوَى ، وكلٌّ بمعــنى واحد ، فليــس كذلك ، لأن الطَّىَّ بمــعنى الحجارة الــتى طُوى بها الــبئر سمــيت بالمصـــدر ، والــطوى هى البــئر نفــها [4] .

وقوله : « أُحْــيِيها لــه بالفقــير ، أى بالحفر وبالغــرس ، يقال فَقَرْتُ الأرض إذا حَفَرْتَها ، ومنه سميــت البئر فقيراً . وقال الوقشُّــى : الصوابُ هنــا بالتفــقير ، وأراد الوقشى هنا المصدر وهو الأحسن [5] .

وعنى الخشــنى فى منهجه فى تــفسير الغريب بالقراءات القرآنية ولغات العرب ، مثال ذلك قوله :

« يقال : أَنَى الشىءُ أَنِىَ وآنَ ، ثلاثُ لغات بمعنى واجد فى معنى حان [6] .

وقوله : « هَلُمُّوا إلىَّ ثوباً ، هى كلمة سمى بها الفعل ، وفيها لغتان : فلغةُ أهل الحجـــاز أن لا يُثَنُّوها ولا يجمــعوها

---

(١) الخشنى ، ج١ ص ١٠٦ .
(٢) الخشنى ، ج١ ص ١٢٢ .
(٣) الخشنى ، ج١ ص ١٣٣ .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ١٣٠ .
(٥) الخشنى ، ج١ ص ١٥٣ .
(٦) الخشنى ج١ ص ١٠١ .

ولا يؤنثوها . ولغة غيرهم أن يُشَتُّوها ويجمعوها ويؤنثوها . وجاء القرآن على لغة الحجاز . قال الله عز وجل : «وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا »[1] .

ومعناها أقبلوا إلينا[2] .

وقوله : ما وَدَّعه وما قلاه . وفى رواية الخشنى وَدَعه بالتخفيف ، وهى لغةٌ شاذة . وقد روى فى بعض القراءات : ما وَدَعَكَ ربُّك بالتخفيف ، وما قلى أى ما أبغضك . تقول : قَلَيْتُ الرجل إذا أَبْغَضْتَهُ[3] .

وإلى جانب عنايته بلغات العرب ، عُنى بالبحث فى أصول الألفاظ الدخيلة مثال ذلك قوله : « لَبَاب لَبَاب . قد فسَّره ابن إسحاق ، ويقال : لَبَاب كلمة فارسية معناها القَفَلَ القَفَلَ أى الرُّجوعَ الرُّجوعَ »[4] .

وقوله : استَرْطبان ، أن معناها أَخَذَتْه النَّارُ بالفارسية[5] .

وقوله : والمرازبة » وزراء الفرس وأحدهم مَرْزُبان[6] .

وقوله : « والأَسْبَذُ » بالفارسية الفَرَسُ[7] .

وقوله : « السَّيْذ » بلغة فارس شعاع الشمس[8] .

ويحاول الخشنى أن يتتبع الألفاظ الحميرية التى دخلت العربية فى سيرة ابن هشام ، مثال ذلك :

قوله : الأَمْضُ الشكُّ بلغة حمير[9] .

وقوله : والشناتر الأصابع بلغة حمير، واحدها شِنْتِرُ . .[10] .

وقوله : وَنَحْمَاسُ بلغة حمير الرأس[11] .

ونجده يعنى بتحديد الألفاظ التى أصبحت لها دلالات اصطلاحية ، سواء

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ١٨ .
(٢) الخشنى ، ج١ ص ١٤٧ .
(٣) الخشنى ، ج١ ص ١٦٠ .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ٨٢ .
(٥) الخشنى ، ج١ ص ٨٣ .
(٦) الخشنى ، ج١ ص ٩٧ .
(٧) الخشنى ، ج١ ص ١٢٢ .
(٨) الخشنى ، ج١ ص ١٩٢ .
(٩) الخشنى ، ج١ ، ص ٧٨ .
(١٠) الخشنى ، ج١ ص ٨٣ .
(١١) المصدر نفسه .

أكانت ألفاظاً دخيلة أم منقولة عن أصل عربى ، مثال ذلك : قوله : الدِّهقان شيخ القرية ، العارف بالفلاحة وما يَصْلُحُ بالأرض من الشجر ، يُلجأ إليه فى معرفة ذلك [1]

وقوله : « قَطَنُ النَّار : هو خادمها الذى يخدمها ، ويمنعها من أن تطفأ لتعظيمهم إياها [2]

وقوله : الأُسْقُفُ فى الكنيسة هو عالم النَّصارى الذى يقيم لهم أمر دينهم ، ويقال : أُسْقُفٌ بالتخفيف أيضا [3] .

وقوله : أصل النَّاموس هو صاحب سر الرجل فى خيره وشره ، فعبَّر عن الملك الذى جاءه بالوحى به (لقد جاءه الناموس) [4]

وقوله : « والسجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر .

وقوله : « الشَّمامِسَة عُبَّاد الروم [5] .

وقوله : والأبناء القبائل المختلطة [6] .

وقوله : والفَيْجُ الذى يسير للسلطان بالكتب على رجليه [7] .

ويبحث الخشنى فى كثير من الأحيان فى أصول معانى الألفاظ التى يقوم بشرحها مثال ذلك :

قوله : السائح الذاهب على وجه الأرض للعبادة ، لا يستقر بمكان ، أُخِذَ من الماء السائح وهو الذاهب على وجه الأرض [8] .

وقوله : التَّهِمَةُ الواسعة المتطامنة ، ولذلك قيل لما انخفض من أرض الحجاز تِهَامة [9] .

وقوله : والقُروم سادات الناس ، وأصله الفحول من الإبل [10] .

---

(١) الخشنى ، ج١ ص ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الخشنى ، ج١ ص ١٥٩ .
(٥) الخشنى ، ج١ ص ١٨٥ .
(٦) الخشنى ، ج١ ص ١٨٦ .
(٧) الخشنى ، ج١ ص ١٠٠ .
(٨) الخشنى ، ج١ ص ٨٣ .
(٩) الخشنى ، ج١ ، ص ٧٧ .
(١٠) الخشنى ، ج١ ص ١٢٨ .

وقولـه : والكَـهَامُ الذى يـقصِّـر فى أموره ، مأخوذ من الـــيف الكهام ، وهو الذى لا يقطع [1] .

وقوله : « والـهُيَّامَةُ الـكثير الـهُيام ، وأصل الهُيام داءٌ يصيب الإبل فتشتد حرارة أجوافـها فلا تَـرْوى من الماء إذا شـربت ، ومنـه قوله تـعالى : « فَشَـارِبُونَ شُـرْبَ الْهِيمِ » [2] .

ويستقى الخشنى شـواهده التى يستدل بها على صحة المعلومة اللغوية التى يوردها من آيات القـرآن الكريم ومن أشعـار عصر الاحتجاج ، ومن الأمثال ، وأقوال «بعض البلغاء » عـلى حد تعبيره ، . وقد يـكتفى بإيـراد شطـر البيـت الذى تضـمن وجـه الشاهد . . وغـالبا ما يحرص علـى نسبة الشاهد إلى قائله .

وكان الخشنى فى غالب الأحيان يذكر مصـادره ، لاسيمـا عندما تـكون هنـالك روايات مختـلفة ، فنراه يذكـر إلى جانب ابن إسحاق وابن هشام ، كراع النمل وابن حبيـب وصاحبَ كتاب « العـين » ، وأبا عبـيد البكـرى وأبا علـى الغَسَّانـى والدارَ قُطنى وأبا عـبيدة مَعْمرِ بن المثـنى والسائبَ الكِـنْدىَّ وعـبد الـغنـى الحافـظ المصـرى والوَقَشى . . وفى كثيـر من الأحيان يَسْنِدُ إلى مجهولين فيقول : « قالوا [3] . . وقال بعض الـلغوييـن . . وقال بعضـهم . . » دون أن يعين القائل .

ومما تجـدر ملاحـظته أن الخـشنـى لم يذكر مـن بين أصحـاب المعجمـات الذين سبـقوه سوى صـاحب كـتاب العـين . . واكتـفى بالإشارة إلـيهم بعـبارات مبهـمة مثل: قالوا ، وقال بعض اللغويين ، وقال بـعضـهم . . إلـخ . . وربما كـانت هـذه الظاهرة تستحق أن تدرس . . . . . .

لقد اهتم الخشنـى بشرح غريب أبيات الشعر الواردة فى سـيرة ابن هشام ، وأفرد

---

(١) الخشنى ، ج١ ص ١٣٧ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية : ٥٥ وفى النص أنظر : الخشنى ج١ ص ١٥٠ .

(٣) انظر : الخشنى ، ج١ ص ٨٠ .

لها عنـاوين خاصة ، ولكنه فـى الواقع لم يقتصـر على غريب الشعر ، ولـكنه تجاوز ذلك إلى شرح غريـب ما ورد فى حوادث الـسيـرة . وربما كـان مـن الضـرورى أن نتوقف عـند مفهوم كلمة « غـريب » عند الخشـنى . وإن الـدارس لكـتابـه (شرح غريـب الـسيـرة) ، يـخرج بـأن لكـلمـة «غريب» مفـهوماً خاصاً عنـده ، ونرى أنه يعنى بالغريب جمـيع الألفاظ التى يصعب فهمها على الشادين والتلامذة المبتدئين . . فمـن الطبيـعى أن يضم مـجلسه لـلإقراء والتدريس تـلاميذ من أجناس مختـلفة من العرب والأعاجم التى يتـكون منها المجتمع الإسلامى . . ولذا نراه يشرح أحياناً ألفاظاً عاديـة بمعناهـا العام ، كـأن يشرح لفـظة «أجل » بمعنى « نعم » . . إلخ .

ويسلك أبو ذر فى منهـجه هذا منهجاً تعليمياً ، وربما أعاد شرح الـلفظة بعينها ، غيـر مرة ، فهـو يملـى كتـابه هذا عـلى تلامـيذه من « حـفظه بلـفظه » ، قـاصداً شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه .

ويقودنا هذا البحث إلى القول إن هذا السفر الجـليل الذى وضعه أبـو ذر الخشنى لطلابه يعتبر إضـافة جديدة فى علم وضع المعجمات ، وكـذلك فيما يتعلـق بالبحث فى المـترادف والمـشتَرَك مـن الألفـاظ وقد جعل من فهم المعانى من « سياق الكلام » مـحـوراً للمنهج الذى تناول به تفـسـيـر غريـب السيرة . ولا شـك أن هذا المنـهج اللغوى يجد جذوره التاريخية فى المصنفات التى سبقته وفيمـا أسماه الجاحظ قبل ذلك بعدة قرون « لكل مقام مقال »[1]

عبد الكريم خليفة

عضو المجمع من الأردن

★ ★ ★

---

(١) انظر : الحيوان ، ج٣ ص ٤٣ ، البـيان والتبيين ، ج١ ص ١٤٥ .

المصادر والمراجع

١ - إبراهيم بن مراد ، دراسات فى المعجم العربى ، بيروت ، سنة ١٩٨٧ م .

٢ - ابن الأبار - أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى التكملة لكتاب الصلة ، السفر الأول ، مجريط ، سنة ١٨٨٦ م .

٣ - ابن رشد - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبى (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج١-٢ ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م .

٤ - الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، ج١ - ٧ ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨ م .

٥ - الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ج١-٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٦ - الخشنى - أبو ذر مصعب بن أبى بكر محمد بن مسعود الخشنى ، (المتوفى سنة ٦٠٤ هـ) ، الإملاء المختصر فى شرح غريب السير ، ج١-٣ ، تحقيق ودراسة د. عبد الكريم خليفة ، عمان ، ١٩٩٠ م .

٧ - الذهبى - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١ -٢٥ ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

٨ - الراغب الأصفهانى - أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل ، (كان فى أوائل المائة الخامسة) ، المفردات فى غريب القرآن ، مصر .

٩ - الزركشى - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، البرهان فى علوم القرآن ، ج ١ - ٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت، سنة ١٩٧٢ م .

١٠ - السيوطى - جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، الإتقان فى علوم القرآن، ج١- ٢ .

١١ - السيوطى - جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، ج١ - ٢ ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م .

١٢ - الشاطبى- أبو إسحق إبراهيم ابن موسى اللخمى الغرناطى المالكى (المتوفى سنة ٩٧٠ هـ) ، الموافقات فى أصول الشريعة ، ج١-٤ مصر .

١٣- الطبرسى - أبو على الفضل بن الحسين ، (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) ، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج١-١٠ ، صيدا ، سنة ١٣٣٣ هـ .

١٤ - محمد المبارك ، فقه اللغة وخصائص العربية، بيروت، سنة ١٩٦٨م .